بين القاضى منصور الهروى والوزير أبو سهل الزوزنى

للأديب الفارسى عباس اقبال

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

مقـــدمة :

لما قامت الدولة العثمانية فاستولت على آسيا الصغرى والعراق العربى والشام وجزيرة العرب ومصر وشمال افريقية تقطعت الأواصر العلمية والأدبية التى جمعت بين العهد العباسى بين المسلمين فى الأقطار كلها من بخارى وسمرقند إلى القيروان ومراكش

اشتدت المنافسة الدينية والسياسية بين الصفويين فى إيران وسلاطين آل عثمان فى البلاد الاسلامية الأخرى وانتهت إلى العداء والحرب ، فأقامت سداً منيعاً بين مسلمى إيران وإخوانهم فى الدين ، فتقطع ما بينهم من روابط. فمسلمو الشرق الذين كان اهتمامهم بالفارسية يزيد يوماً بعد يوم بحكم الزمان ، والذين كانوا ينصرفون عن العربية لزوال دولها المستقلة سلكوا طريقاً غير الطريق التى سلكها مسلمو الغرب تحت سيطرة الترك العثمانيين ولواء السلطان حامى مذهب أهل السنة والجماعة .

وكانت عاقبة هذا أن الايرانى حرم الاستفادة من المؤلفات التى كانت تكتب خارج حدود بلاده والكتب القديمة التى كانت مدخرة فى غير وطنه . وكذلك حيل بين رعايا العثمانيين وبين آثار النهضة العلمية والأدبية فى إيران . وزاد تعصب الفريقين هذه الفرقة على مر الزمان . واليوم وقد نهضت أهل مصر والشام لأحياء الآداب والمعارف الاسلامية ، لا نزال نرى العلماء والأدباء على براءتهم من التعصب والحمد لله يهملون كل ما كتب بالفارسية ـ إحدى لغتى التمدن الاسلامى العظيمتين ـ ويصدفون عما كتبه علماء المذهب الشيعى ـ أحد المذهبين العظيمين فى الاسلام . يتبين من مطالعة الكتب والمقالات التى يكتبها فحول الكتاب والمؤرخين فى مصر والشام أنهم متمكنون فى الآداب العربية وتاريخ الاسلام ، بصيرون بكثير من الحقائق الراجعة إلى الفرنج وآدابهم . حتى إذا عرض بحث عن إيران والآداب الفارسية ، أو مذهب الشيعة كبا جوادهم وكثرت زلات أقلامهم . ونرى بعض هؤلاء الكتاب يحاولون الرجوع إلى المراجع الفارسية وهم يجهلون لغتها فيتوسلون إليها بالمراجع الأوربية فيحرفون الأعلام حين ينقلونها من الحروف اللاتينية إلى الهجاء العربى تحريفاً يغير معالم التاريخ والجغرافيا

كتب أحد كتاب مصر (ونمسك عن ذكر اسمه إجلالا لمقامه) ترجمة ناصر الدين شاه والوزير ميرزا تقى خان . وكان أخذه عن كتاب انجليزى فكتب «نصر الدين» و«طاغى خان» ، والذى يعرف العربية يدرك الفرق بين ناصر ونصر وتقى وطاغى . وللتحرز من مثل هذا اللبس عنى العلماء المدققون من قبل بتأليف كتب مثل « المؤتلف والمختلف » و « والمشتبهات » و « المشترك » وغيرها . واجتهدوا فى ضبط الاعلام وتعيين لفظها ورسمها .

وهذا الخلط والمسخ ظاهران فى ترجمة دائرة المعارف الاسلامية التى تنشر فى مصر الآن فهى مليئة بأغلاط من هذا القبيل لا يتيسر تعدادها .

انما يريد الكاتب من هذه المقدمة أن يلفت أدباء العربية ومؤرخيها ومحققيها الذين يجتهدون فى كشف حقائق التمدن الاسلامى على سنن المحققين من الفرنج ، إلى هذه النكتة الدقيقة : وهى أن أمامهم مصدرين عظيمين لتكميل معارفهم فى كل ما يرجع الى التمدن الاسلامى ـ مصدرين لا يغنى بهما كثير من الباحثين على ما ضمنا من حقائق لا يظفر بها الباحث فى الكتب العربية المعروفة . هذان المصدران هما الكتب الفارسية وكتب الشيعة التى ألفت فى إيران بالعربية أو الفارسية

أرى كثيراً من فضلاء الشبان فى مصر والشام يكتبون رسائل أو كتباً عن حكماء الاسلام وعلمائه ومؤرخيه فلا يستطيعون بلوغ الغاية فى التحقيق بما جهلوا الفارسية فحرموا

الاستفادة من الكتب المعروفة فى إيران . كيف يستطيع كاتب أن يحقق تاريخ ابن سينا وفلسفته وهو يغض الطرف عن كتبه الفارسية : « دانشنامة علائى » و « رسالة نبضية » ومعراجنامه ، أو عن أشعاره الفارسية . وكيف يستطيع أن يوفى البحث عن أبى الريحان البيرونى وهو يغفل النسخة الفارسية من كتاب التفهيم فى صناعة التنجيم وما كتبه عنه مؤلفو الفارسية القدماء مثل أبى الفضل البيهقى فى تاريخ آل سبكتكين ، ونظامى العروض للسمرقندى فى جهار مقاله وفيه حقائق لا تلفى فى كتب أخرى ؟ ومثل هذا يقال عن كثير من العلماء أمثال الامام فخر الدين الرازى ، والعلامة قطب الدين الشيرازى ، والامام عمر الخيامى ، وجار الله الزمخشرى ، ورشيد الدين الوطواط ، ونصير الدين الطوسى .

من ذا الذى يعنى بالتاريخ ومايحتاج إلى كتبه مثل تاريخ قمّ (وقد فقد أصله العربى ، ولم يبق إلا جزء من ترجمته الفارسية) ومحاسن اصفهان لسعد الدين البافروخى ، وكتاب الفهرس للطوسى ، ومعالم العلماء لابن شهراشوب ، والفهرست للفمى ، وكتاب الرجال للكشى ، وكتاب الرجال للنجاشى ، وكتاب الرجال الكبير للاستراباذى ، وروضات الجنات للخونسارى ، وكلها من أمهات كتب الشيعة ؟ أوكيف يغض الطرف عن كتب التاريخ الفارسية مثل جهانكت للجوينى ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الوزير ، وتجزية الأمصار وتزجية الأعصار أعنى تاريخ الوصاف ، وزبدة التواريخ للحافظ أبرو ، ومطلع السعدين لعبد الرزاق السمرقندى ، وظفرنامه للنظام الشامى ، وشرف الدين على اليزدى ، وحبيب السير ، وروضة الصفا ، ومجمع الأنساب ، وتاريخ كراميره وكلها ثقة فى تاريخ المغول وعصر تيمور ؟

كل متأدب فى العالم العربى سمع اسم أطباق الذهب لشرف الدين عبد المؤمن الأصفهانى ، كتبه على نسق أطواق الذهب لأبى القاسم الزمخشرى ، وربما لا يوجد فى هذه البلاد من يعلم أن شرف الدين المذكور (ويعرف باسم شرف الدين ابن شفروه) واحد من أشهر شعراء الفارسية له ترجمة فى كل كتاب فارسى مترجم للشعراء . وكذلك كتاب الفخرى لصفى الدين محمد بن على بن الطقطقى طبقت شهرته الآفاق ، ولكن قليلا من فضلاء العربية من يعلم أن فى الفارسية نسخة من هذا الكتاب أكثر تفصيلا كتبها هندوشاه النخجوانى سنة ٧٢٤ ، ويؤخذ من هذه النسخة الفارسية أن اسم كتاب الفخرى الحقيق : « منية الفضلاء فى تواريخ الخلفاء والوزراء »

أرجو أن يعذرنى القراء الكرام فى تطويل هذه المقدمة التى يمكن أن يكتب فى موضوعها كتاب والتى يرى القارىء فيها وفيما بعدها أن الفرع قد زاد على الأصل . إن عذرى فى هذه الإطالة رجائى أن يكون فيها بعض الفائدة

* * *

ومن أمثلة ماذكرنا فى المقدمة أعنى الأمثلة التى تبين أن الكتب الفارسية تعين على إيضاح مسائل تاريخية ودقائق فى الأدب العربى أو تتضمن أحياناً فوائد لاتلفى فى الكتب العربية ، قصة القاضى منصور الهروى أحد الشعراء النابهين فى القرن الخامس الهجرى ومن ذوى الصيت الذائع فى البلاد الاسلامية الشرقية فى هذا العصر .

القاضى أبو أحمد منصور بن أبى منصور محمد الأزدى الدولى ، المعروف بالقاضى منصور أو منصور الفقيه [1] ، ولى قضاء هرات فى عهد الملوك الغزنويين ، وكان منصب القضاء وراثة فى أسرته . وكان القاضى مع هذا المقام الجليل ، يمضى أكثر أيامه فى مصاحبة أهل الطرب ومنادمة إخوان اللهو والتمتع بالعيش الرضىّ ، والوجه الجميل ، يرى طبعه الشاعر أن الحياة فى السرور والطرب ، وكأن لسان حاله بيتا شمس الدين محمد حافظ الشيرازى :

« صديقان أريبان ، ومنوان من الخمر المعتقة ، وفراغ ، وكتاب وزاوية فى المرج ، لاأبيع هذا المقام بالدنيا والآخرة وإن يكن الناس قد اتخذونى إماما)

والقاضى منصور من معاصرى أبى منصور الثعالبى مؤلف يتيمة الدهر وتلميذه أبى الحسن الباخرزى مؤلف دمية القصر ، وقد أثبت هذان المؤلفان له ترجمة مختصرة

(١) ينبغى التمييز بين منصور الفقيه هذا أعنى القاضى منصور الدولى الازدى ومنصور الفقيه المصرى أعنى أبا الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التيمى الضرير ويذكر غالبا فى الكتب القديمة باسم منصور الفقيه . وكان شاعرا أيضا توفى سنة ٣٠٦ .

ونبذة من شعره فى يتيمة الدهر (٤ — ٢٤٣) وتتمة اليتيمة (٢ : ٤٦ — ٥٣) وفى دمية القصر (فى ذيل شعراء خراسان)

وهذه نبذة مما كتبه الباخرزى :

وكان مغرى بالشراب ، مغرماً بالأطراب ، يمناه متوجة بكأس الحيق ، ويسراه مقرطة بعروة الإبريق . وخمرياته مما يحكم له فيها بالفضل على الحكمى ، وغزلياته مما يحصل بها مطاوعة الغزال الآبى .

وكذلك فى معجم الأدباء طرف من أخباره وقطع من أشعاره (٧ — ١٨٩ — ١٩١) ويقول ياقوت إن القاضى منصور كان من مادحى القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢) وأنه توفى سنة ٤٤٠ .

وفى تاريخ آل سبكتكين الذى ألفه بالفارسية أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقى (٣٨٥ — ٤٧٠) ، وهو من معاصرى القاضى وأصدقائه ، فصل ممتع فى ترجمته لا يلفى فى مصدر من المصادر المذكورة ، ولا فى غيره من المراجع المشهورة . ونحن نثبته هنا إفادة للقراء وإثباتا لدعوانا فى المقدمة (طبع طهران ص ٥٩٩ - ٦٠١) . يقول أبو الفضل البيهقى :

وكان بهرات رجل يقال له القاضى منصور له قدم فى كل علم وفضل قد سكن الى الشراب واللهو ، وأخذ حظه من الدنيا الغادرة وجعل شعاره : خذ العيش ، ودع الطيش . وكان ريحانة الأكابر لا يأنسون بمجلس لا يضمه . وكان صديقاً لأبى سهل الزوزنى[1] قد أحكمت مودتهما أواصر الأدب . وكانا يتلازمان ويعكفان على المدام . بكر القاضى منصور يوماً الى لهوه وشرابه ، وأرسل اليه أبو سهل أبياتا ، فأجاب بديهة على رويها ؛ وأعاد أبو سهل الكتابة فأجاب أبو منصور ولم يحضر ومضى اليوم .

وهذه هى الأبيات التى كتبها الشيخ أبو سهل الزوزنى :

أيهـا الصدر الذى دا نت لغرته الرقاب
انتدب ترضى الندامى هم على الدهر كتاب
وأسغ غصة شرب ليس يكفيها الشراب
واحضرن لطفا بناد فيه للشوق التهاب
ودع العذر وزرنا أيها المحض اللباب
بينك المر عذاب وسجاياك عذاب
انما أنت غناء وشراب وشباب
جودك المرجو بحر فضلك الوافى سحاب
انما الدنيا ظلام ومعاليك شهاب

فاجابه القاضى فى الوقت :

أيها الصدر السعيد الماجد القرم اللباب
وجهك الوجه المضىء رأيك الرأى الصواب
عندك الدنيا جميعا وإليها لى مآب
ولقد أقعدنى السكر وأعيانى الجواب
فى ذرى من قد حوى من كل شىء يستطاب
ولو استطعت قسمت الجسم قسمين لطاب
غير أنى عاجز عنه وقلبى ذو التهاب
فبسطت العذر عنى فى أساطير الكتاب

وكتب اليه أيضا أبو سهل :

أيها الصدر تأن ليس لى عنك ذهاب
كل ما عندك خمر كل ما دونك عاب
وجهك البدر ولكن بعد ما انجاب السحاب
قربك المحبوب روض صدك المكروه غاب
عذرك المقبول عندى أبد الدهر يصاب
أنت إن أبت إلينا فكما آب الشباب
أو كما كان على المحل من الغيث الضباب
بل كما ينتاش ميت حين واراه التراب

فكتب منصور بعد ما أدركه السكر :

نام رجلى مذ عبرت القنطره
فاقبلن إن شئت منى المعذره
ان هذا الكأس شىء عجب
كل من أغرق فيه أسكره

(باريس) **عباس اقبال**

(١) الشيخ العميد أبو سهل محمد بن الحسين الزوزني كان من كتاب السلطان شهاب الدولة مسعود بن محمود الغزنوى (٤٢٠ - ٤٣٦) ورئيس ديوان رسائله .